المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فخلقه وعلمه البيان، فكان الله مصدر كل علم يعلمه الإنسان، فسبحان من خلق فأبدع، وعلم فأتقن، فكان من جميل صنعه في الإنسان أن علمه البيان، فأصبح قادرا على أن يُبين، وتلك آية من آيات رب العالمين، فأبدع الإنسان في هذا الباب أيّما إبداع، فكان سبحانه هو بديع السماوات والأرض، وكان من تمام إبداعه أن فتح الباب لعباده ليبدعوا كما أبدع، ولكن هيهات هيهات بين صنع الله وإبداعه وبين فتوحاته التي يمُنُّ بها على عباده ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنين: آية ١٤]، فإنْ أبدعنا كبشر فأين إبداعنا من إبداع خالق البشر؟ وإن تصورنا أننا خلقنا فأين خلقُنا من خلق أحسن الخالقين؟ وإن تكلمنا فأين كلامنا من كلام رب العالمين ؟.

يحدثنا الحق تبارك وتعالى من خلال كتابه العزيز، فنحاول أن نقتبس من نور كتابه لنتعلم كيف يكون البيان، وكيف يُبنى الكلام، ولهذا وجب علينا دراسة هذا الكتاب، فننظر ما فيه من إبداع بلغ حد الإعجاز، وإن إعجازه آت من تمام بيانه، فالكلمة فيه لا يصلح مكانها سواها، وإن عصرت اللغة عصرا، واستخرجت ما فيها من ألفاظ ومعان، فأنت عاجز عن أن تأتى بغيرها مكانها .

وقد فُتن بإعجازه العلماء قديما وحديثا، فألفوا حول هذه العبارة (إعجاز القرآن) المؤلفات، وطرقوا كل أبواب البيان ليبلغوا بعض ما فيه من إعجاز، ويظل هذا الكتاب معجزا في كل عصر بما يخرجه لنا من أسرار بلاغته في كل زمان، وعلى يد كل عالم طرق هذا الباب .

إنني هنا أحاول طرق باب من أبواب البيان، وهو باب الاستعارة، وقد سبقني إلى هذا الباب علماء أجلاء، أبلوا فيه بلاءً حسنا، فحاولتُ أن أهتدي بهم في هذا الطريق، فعرضت فكرة الاستعارة كما ذكرها القدماء، ورجعت لرأي المحدثين فيها، وقد وضع القدماء أصول هذا العلم، وقد فتح المحدثون الباب وزادوا فيه ليبدعوا من جديد، ويعيدوا النظر إلى الأشياء، فتبدو في شكل جديد، كأنما لم تدرس من قبل.

وقد جاء الكتاب في صورة جامعة لفكر القدماء والمحدثين حول الاستعارة، ولكي يكون العمل ميدانيا كان كتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن) للشريف الرضي القاعدة التي ننطلق منها إلى الأمثلة التطبيقية على الاستعارة القرآنية؛ لنجمع بين الفكر الحديث، وفكر ورأي القدماء حول الصورة الاستعارية، ثم ندخل بهذا التصور القديم إلى ما يراه المحدثون، فتبدو الصورة الاستعارية أكثر وضوحاً بما يخلعه عليها تحليل المحدثين من إلقاء الضوء على جوانب في الصورة لم يشر إليها القدماء، ولم يتناولوها بالدراسة أو التحليل .

كل هذا في سبيل هدف واحد، هو توضيح إعجاز الكتاب الكريم، وهذا الأمر ليس الغرض منه تطويع النص القرآني للنظريات الدلالية الحديثة، أو أنه يجاريها، بل لبيان أن الحق سبحانه وتعالى سبق بكلامه ما وصلت إليه عقول البشر، وأن ما فيه من بيان أعجز كل أصحاب البيان، وما دفعنا إلى محاولة فهم النص القرآني المعجز إلا قوله تبارك وتعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: آية ٢٣]، وفي موضع آخر قال: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**﴾ [النساء: آية ٨٢]، فمحاولة فهم النص القرآني هو أمر من الله لنا، فعلينا أن نطيع أمر ربنا.

لقد لاحظت ما قدمه علماء اللغة في عصرنا حول الاستعارة كباب من أهم أبواب الإبداع من دراسات جادة، قاموا فيها بتحليل الجانب اللغوي والذهني لهذه العملية لإخراج مكوناتها الدلالية؛ بشكل يشعرك أنه لا يوجد ما يُقال بعد ذلك، لكن باب البحث والدراسة والإبداع فيه لا ينتهي، بل لابد لكل باحث أن يبدأ من حيث انتهى الآخرون، فيوظف كل جديد يجده، أو يبتكره من سبقه في خلق جديد آخر لم يُسمع به من قبل .

وانطلاقاً من هذا المفهوم قمت بمحاولة توظيف معطيات بحوث ودراسات هؤلاء الباحثين المحدثين في دراسة الاستعارة، وما قدمه القدماء من دراسات في هذا الباب من خلال كتاب الشريف الرضي؛ لنضع هذه الآيات القرآنية في مكانها اللائق بها كآيات معجزات، تظل مادة بحثية في كل زمان ومكان، لا يشبع منها العلماء، وتبهر الناس بإعجازها الذي لا ينتهي .

أعجبتني عبارة لهؤلاء الباحثين المحدثين، وهى (الاستعارة الميتة) في مقابل الاستعارة الحية، ذكر ذلك بول ريكور في قوله: (فالاستعارة الميتة ليست باستعارات إذا أردنا الدقة، وأعنى بالاستعارة الميتة عبارة من طراز (أرجل الكرسي) أو لسان الباب، والاستعارة الحية هي استعارات الابتكار التي تكون فيها الاستجابة للتنافر في الجملة توسعا جديدا للمعنى، وإن صح القول بالتأكيد أن الاستعارات المبتدعة تتحول بالتكرار إلى استعارات ميتة [1].

هذا القول جعلني أعيد التفكير في قضية تغيير الاستعارة، فإذا كانت الاستعارة تولد جديدة نتيجة الإبداع والابتكار كل يوم، ثم تصبح قديمة بعد ذلك، بل ميتة، فكيف يكون في القرآن الكريم مثل هذه الظاهرة (الاستعارة) التي تتحول من الجديد إلى القديم أو الميت أو المبتذل ؟.

كان هذا الأمر من دوافعي إلى البحث في قضية الاستعارة القرآنية، كيف تتجدد هذه الاستعارة ولا تُبتذل رغم انقطاع الوحي، لقد جاءت الاستعارة القرآنية حاملة معها عناصر التجديد، كما في قوله تعالى: ﴿**لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ**﴾ [التوبة: آية ٥٧] يقول القرطبي (وهم يجمحون أي يسرعون، لا يرد وجوههم شيئ من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام) [2].

لقد اعتمدتْ الاستعارة في (يجمحون) على الصورة الذهنية لدى العربي عن الفرس الجامح، وهو الفرس الفار من صاحبه، وما فيها من جمع بين صفتين هما السرعة والخوف، ففي عصرنا من يسبق الفرس كالطائرة، ولكن لا توجد طائرة تجمع بين الصفتين: السرعة مع الخوف، فتظل الصورة الاستعارية في يجمحون متجددة، ويظل مجال الهدف (أصحاب النار) حاملا خصائصه الأصلية الخوف الشديد مع نقله لصفات مجال المصدر (الفرس الجامح) وهي السرعة الشديدة.

المؤلف

---

(١) نظرية تأويل الخطاب وفائض المعنى ، بول ريكور، ت/ سعيد الغانمى،المركز الثقافي العربي ١٩٧٦ص٩٣.

(٢) تفسير القرطبي ، دار الريان للتراث بدون تاريخ ٢٠٠٣/٥